محاضرات مادة التصوير الفني في القرآن الكريم – سنة ثانية ماستير لغة ودراسات قرآنية - للأستاذ الدكتور قويدر قيطون

عنوان المحاضرات: الخصائص الفنية لبعض أساليب البيان في القرآن (التشبيه- الاستعارة – الكناية)

أولا: خصائص التشبيه القرآني

التشبيه إحدى صور البيان الرائعة التي تكشف لنا عمّا تدركه الوجدانات ، أو تتفاعل معه المشاعر والأحاسيس ، ذلك أنه يشرك السامع بما أحس به المتكلم في نفسه من المعاني ، وقد تعددت تعريفاته ، إلا أنها تشترك وتتقارب في المضمون سواء كان تعريفه : « الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى »[1] ، أو « وصف الشيء بما يقاربه ويشاكله »[2] أو « العقد على أن أحد الشيئين يسدّ مسد الآخر في حس أو عقل » .[3]

فالأصل إذن في التشبيه إدراك الصلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسي ، فهو دلالة فنية ، ذلك أن تشبيه الشيء بغيره يهدف إلى تقرير وصف ، أو معنى في ذلك الشيء عن طريق التشبيه بمشبه به لكون ذلك الوصف أو المعنى واضحا في المشبه به واشتهر به ، والذي يكون دوره إثارة مشاعر الارتياح والاستحسان في النفس الإنسانية ، يقول عبد القاهر الجرجاني عن جمال التمثيل وتأثيره في النفوس : « واعلم أنّ ما اتفق العقلاء عليه أنّ التمثيل جاء في أعقاب المعاني أو برزت باختصار في معرضه ، ونقلتا عن صورها الأصلية إلى صورة كساها أبهة و أكساها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها »[4] ،

ويرى عبد القاهر أن الخيال المعتمد على التصوير الحسي أقرب إلى النفوس ، وأسرع إلى إظهار المعنى للمعقول ، ثمّ إنه يجمع إلى ظهور المعنى وثبوته أثرا نفسيا جميلا ، لأنّ النفوس ترتاح إلى مخاطبتها بالحس ، فهي أوّل وسائل المعرفة ، وأهمها لديها ، وآثرها عندها ، فيقول : « وهل تشكّ في أنه يعمل عمل السّحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد مابين المشرق والمغرب ، ويجمع مابين المشئم والمعرق ، وهو يريك المعاني الممثلة بالأوهام في الأشخاص الماثلة ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام بين الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعتين » .[5]

وقال السكاكي أنه : « من حذق في التشبيه ملك زمام التدرب في فنون السحر البياني ، وأن التشبيه يجمع بين حقيقتين حسيّتين في الغالب » .[6]

وكل تشبيه يتشكّل من طرفين هما المشبّه والمشبّه به ، أمّا وظيفة المشبّه فهو الذي ينقل به المعنى إلى المتلقي ، بينما المشبّه به فهو الذي نستعين به لتوكيد المعنى « التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا » .[1]

---

[1] - عبد التواب صلاح الدين ، الصورة الأدبية ، ص28-29 .

[2] - حسين عبد القادر ، القرآن والصورة البيانية ، ط2 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1985 ، ص45 .

[3] - الخطيب القزويني جلال الدين محمد ، الإيضاح في البلاغة ، تح: إبراهيم شمس الدين ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،1424هـ 2003م ، ص21 .

[4] - عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص93 .

[5] - عبد القاهر الجرجاني ، المصدر السابق ، 107 .

[6] - السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر ، مفتاح العلوم ، ضبط: نعيم زرزور ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1407هـ 1987م ، ص359 .

ويرى ابن الأثير أن للتشبيه أثرا نفسيا وهو : « أننا إذا مثلنا الشيء فإنما نقصد به إثبات الخيال في النفس ، بصورة المشبّه به أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرق الترغيب فيه أو التنفير عنه ، فإذا شبّهنا صورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النّفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شبّهنا بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النّفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها » .[2]

وفي القرآن تشبيهات عديدة لها خصائصها التي نجملها فيما يأتي:

1- يستمد القرآن عناصره من الطبيعة : من نباتها وحيوانها وجمادها ، فمما اتخذ مشبها من نبات الأرض : العرجون واعجاز النخل ، والعصف المأكول ، والشجرة الطيبة والحبة تنبت سبع سنابل ، ومما اتخذ مشبّها من حيوانها : العنكبوت ، والحمار ، والكلب ، والفراش ، والجمال ، والأنعام..
2- التشبيه ليس عنصرا إضافيا في الجملة ولكنه جزء أساسي لايتم المعنى من دونه فهو ضرورة استدعاها المقام
3- مقدرة التشبيه القرآني الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية كقوله تعالى (كالبنيان المرصوص)
4- دقة التشبيه فالتشبيه القرآني يصف ويقيّد حتى تصبح الصورة أكثر دقة ووضوحا كقوله تعالى (كالعهن المنفوش) فقد أكمل الوصف بقوله منفوش لتصوير هشاشة الجبال.
5- التشبيه القرآني قد يأتي مركبا من صور متعددة كتشبيه حال المنافقين بما يعرف في سورة البقرة بأصحاب المثل الناري وأصحاب المثل المائي.

ولا يهدف الخطاب القرآني باستدعاء التشبيهات للتأثير في المُخاطَبين وحسب ، وإنما لجأ إليها للتصوير والتأثير معا كقوله تعالى : (ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير)

فانظر إلى الخطاب القرآني وهو يصوّر حال المنافقين ، فقد ذكر تشبيهين لهم في بداية سورة البقرة كل منهما يمثل حالة نفسية يعيشها المنافق ، ويظهر فيها المعاناة التي يحياها مع أمرض قلبية أزمنت في نفسه وسيطرت عليه فلم يستطع منها فكاكا ، إذ يأتي بصورتين متكافئتين في القيمة متكاملتين في الدلالة ، ويخرج الأزمات النفسية ، والاضطرابات الشعورية التي يحياها المنافقون في معرض المدركات المادية في مجال الرؤية البصرية وحاسة السّمع ، حيث تختلط الأضواء البارقة بالأصوات الصاخبة في الكون والنّفس على السواء ، قال تعالى:مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

فهو تشبيه لحال المنافقين وقد ادّعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان ، فظنوا في أنفسهم أنّ هذا الخداع لن تكون له نهاية ، ولكن هيهات ، فمثلهم كمثل الذي استوقد نارا فبددت الظلمات وأضاءت ما حوله ، وبينما هو كذلك في فرحه ومرحه وسروره وبهجته ، وإذ بهذه النّار تخمد وتنطفئ فلا يبقى منها شيء .

---

[1] - العسكري ، الصناعتين ، ص243 .
[2] - ابن الأثير ، المثل السائر ، ج2 ، ص124 .

وكان بيان حالتهم الثانية وهي حالة الحرج والضيق في المثل الثاني ، قال تعالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ.

يشبه القرآن حالهم في هذا الضيق وتلك القسوة وذلكم الحرج ، بقوم يسيرون والمطر الكثير الشّديد ينزل من السّماء ، وقد أظلم الجو ، ومع هذا المطر من رعد قاصف ، وبرق شديد اللمعان ، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتّى لا يسمعوا أصوات الرّعد ، وهذا البرق الشديد ، يكاد يخطف أبصارهم ، ولكن مع شدّته يضيء لهم إذا مشوا فيه ، فإذا ذهب وقفوا في أمكنتهم ، فهم في شدّة على كل حال ، وكذلك كان المنافقون فهم مع ادّعائهم الإسلام ، كانوا يخشون دائما أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم ، فهم مضطربون دائما لا يستقر لهم قرار .

فالتشبيه في المثالين السابقين تمثيلي حيث يصف لنا ضعف نفوسهم واضطراب أحوالهم ، وفي الثاني تصوير لفزعهم وعدم انتفاعهم بما في أيديهم من الهدي والنور.

إنّ مجرّد استيقاد النّار لغرض الإنارة في الظلام يمثّل تطلعا شديدا للخلاص من أزمة نفسية حادة ، يكابدها المستوقد في وحشته وقلقه ، وتزيد الصورة في إبراز الإيلام النفسي حينما اختارت عنصر (الإضاءة) حول المستوقد « فلو انطفأت النار حال اشتعالها لكان خاليا من كل أمل يواكب المستوقد ، غير أنها فجّرت الملل في نفسه حين أضاءت ما حوله ، أي حققت له مهمة الإبصار ، ثمّ تركت أعمالهم تأخذ طريق اليقين والاطمئنان ، ولاشيء أشد إيلاما في النّفس من اطمئنانها أو الإحساس بأنها مطمئنّة فعلا ، ثم اختناق هذا الأمل في زحمة الاطمئنان المذكور »[1] ، وهنا تظهر روعة التعبير القرآني في التصوير إذ استعمل (لما) في قوله : (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) لتفيد معنى المفاجأة والسرعة في تبديد الضوء ، وذهاب النور ، كما أضاف النور إليهم للإيحاء بأنهم قد استأنسوا به نفسا وفرحوا به كثيرا ، فيكون الذهاب أشدّ صدمة لمشاعرهم وهم في غمرة الفرح به ، ثم إن جمع الظلمة للإشارة إلى أنها ظلمات بعضها فوق بعض ، فلا يبصر الواقع فيها شيئا ، لشدّة الظلمة وكثافتها ، وبذلك يسيطر الخوف على قلوب المنافقين ، الخوف من سواد الليل المظلم بأشباحه وأهواله ، بجانب حسرتهم على ذهاب النور ويأسهم من الخلاص . وهذه الظلمات المتراكمة في الكون والعين تعكس ظلمات النّفس المتمكنة في قلوب المنافقين ، وعليه فإن الظلمات المرسومة في الصورة إشارة إلى الظلمات النفسية والخلقية والاجتماعية الناجمة عن تعطيل وسائل الإدراك الحسي .

وفي استعمال لفظة (استوقد) إشارة على ما به من السعي المحموم ، والكدّ الدائم في طلب النّار ولو كان ضئيلا تنقذ الساري من شبح الظلمة التي تطوق به ، ففيها « تتبين حالة رجل قد أحاطت به حلكة الظلام ، فهو يطلب جاهدا نارا تضيء له مسالك السّبيل ، والسين والتاء يدلاّن على هذا البحث القوي والطّلب الجاد »[2] .

وتعقب هذه الصورة صورة ثانية أكثر تفصيلا لما يعانيه هؤلاء المنافقون من فرط الحيرة ، وشدة القلق وكثرة الهلع ، وتعاقب الصورتين في سياق واحد حينما يكون المشبّه واحدا ، والمشبه به متعدّدا « ينتج

---

[1] - محمود البستاني ، دراسات فنية في التعبير القرآني ، ط2 ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، لبنان ، 1984 ، ص13 .

[2] - أحمد احمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص32 .

عنه توسّع في الصورة وتنام في الدّلالة »[1]، فضلا عن أنّ اطّراد التشابيه يحيل إلى تحليل الصورة الأصلية على مكوّناتها المباشرة لبيان حضور جميع العناصر الأساسية فيها وتفاعلها ، ومن ثمّ جمالها وكمالها.[2]

والصورة في التشبيه الثاني بما فيها من الظلمات والرعد والبرق والصواعق ، تمثل العمليات النفسية المعبّرة عن الصراع الذي يحياه المنافق ، وإذا كانت الصورة بمكوناتها الجزئية الظلمات والرعد والبرق ، توضّح الانفعالات النفسية المتداخلة لدى المنافقين ، فإنها بطابعها الكلي « تمثيل لحال المنافقين بين جوانب ، ودوافع حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده ، وجاذب الشّر من أعراق النّفوس والسخرية بالمسلمين » .[3]

ومن ذلك قوله تعالى : [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] النــور : 39 .

حيث شبه أعمال الكفار يوم القيامة بالسراب ، والسراب كما جاء في لسان العرب هو الذي يكون نصف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار ، وقال ابن السكيت : السراب الذي يجري على وجه الأرض كأنه الماء وهو يكون نصف النهار ، وقال أبو الهيثم : سمي السراب لأنه يسرب سروبا أي يجري جريا ، يقال سرب الماء يسرب سروبا .[4]

وقال الزمخشري السراب ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري[5] ، والبقيعة بمعنى القاع ، أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض[6] ، فشبه سبحانه أعمالهم في فوات نفعها وضياع فائدتها وحصول ضررها بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد ، فيطارده أملا في الوصول إليه ، لكنه لا يجد شيئا مما كان يظن فيخيب رجاه وينقلب ذلك الأمل الذي لاح له من بعيد حسرة وندما ، وانظر كيف اختير لفظ " الظمآن " ، ولم يقل : يحسبه الرائي ، وذلك أنّ الظمآن أشدّ حرصا فنفسه تطلبه [7]، ولا يقف التعبير القرآني عند تجسيم الأعمال بالسراب بل يضيف للمشهد حركة وحياة فهو« يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة يلتمع التماعا كاذبا فيتبعه صاحبه الضامئ وهو يتوقع الري غافلا عما ينتظره هناك ، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة فهذا السائر وراء السراب ، الضامئ الذي يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هناك ... يصل فلا يجد ماء يرويه إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال ، المرعبة التي تقطع الأوصال ... وتورث الخبال "ووجد الله عنده " الله الذي كفر به جحده وخاصمه وعاداه وجده هنالك ينتظره ولو وجد في هذه المفاجأة خصما له من بني البشر لروّعه وهو ذاهل غافل على غير استعداد فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار »[8]

---

[1] - عبد السلام المساوي ، البنيات الدالة في شعر أمل دنقل ،د ط ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، سوريا ، 1994 ، ص 102 .

[2] - محمد عبد الهادي الطرابلسي ، تحاليل أسلوبية ، د ط ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1992 ، ص19 .

[3] - الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج1 ، ص314 .

5– ابن منظور ، لسان العرب ، م3 ، مادة (سرب) ، ص 1981 .

6 – الزمخشري ، الكشاف ، ج3 ، ص78 .

7 – الزمخشري ، المصدر نفسه ، ص ن .

[7] - أبو زهرة ، المعجزة الكبرى ، ص227 .

2- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م4 ، ص2521 .

علق عبد الفتاح لاشين على هذا التشبيه بقوله : « فلو أن القرآن اختار التعبير الذي لا تصوير فيه وقال مثلا : " والذين كفروا أعمالهم غير مثمرة " لم يكن له في النفس هذا الأثر القوي الذي يصور عدم جدوى هذه الأعمال ، إذ يقرنه بشيء نراه بأعيننا ونكاد نؤمن بوجوده إيمانا لا يتسرّب إليه الشّك ، فالصورة التي أتى بها القرآن تزيدنا اقتناعا بعدم جدوى أعمالهم ، وقد صوّر القرآن كثيرا من الأمور المعنوية بالأشياء الحسية لهذه الغاية ».[1]

ومن خلال هذا التشبيه نلمح إلى أن القرآن كثيرا ما يركز على العناصر الأساسية في حياة الإنسان ليشبّه ما يريده بها ، إذ القرآن يستثمر مسألة تعلق النّفس ببعض الأساسيات ، فيكون المشبه به غالبا مما له تعلق أساسي بالنفس الإنسانية ، ويصعب عليها التخلي عنه .

ثانيا :جماليات الاستعارة في القرآن الكريم.

الاستعارة هي إحدى صور المجاز ، وهي من أحفل صور المجاز بالصور المتداعية والمعاني الثانوية المتولدة ، وأكثرها زخما وتخييلا وأداء نفسيا ، فهي تفترق عن التّشبيه في أنها خيالية ، يتوحد منها طرفا التشبيه ، فهي تصور الشيئين وكأنهما شيء واحد ،كأن المشبّه قد حلّ في المشبّه به[2] ، والاستعارة بهذه الفاعلية تتعدى على جوانب الواقع وتلغي الحدود العملية بين الأشياء على نحو لا يستطيعه التشبيه.[3]

فالجرجاني يعرفها بقوله : « فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبّه به فتعيره المشبّه وتجريه عليه تريد أن تقول :رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول رأيت أسدا»[4]

ويقول أيضا : « اعلم أن الاستعارة أَمَدُّ ميدانا ، وأشد افتنانا وأوسع سعة وأبعد غورا واذهب نجدا من أن تجمع شُعبُها وتُحصر فنونها ، ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعاني حتّى تخرج من الصدفة الواحدة عدّة درر ، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها ، إن شئت أرتك المعاني التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتّى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها الظنون».[5]

ويكمن البعد النّفسي لهذا النّمط من التعبير في أن هذا اللون من التعبير مما ترتاح إليه النّفس ، إذ يتدرج بالنفس من إحساسها بالفكرة صورة مبهمة ، إلى أن تصبح صورة لغوية تفيض بكل المثاليات المختزنة في النّفس عن المشبّه ، كما أنها تدل على ذات صاحبها موضّحة نزوعه النفسي والذهني ، وقد نبه لذلك علماؤنا القدماء عند حديثهم عن الاستعارة ، فقد قال بعضهم : « وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقة»[6] ، ذلك أن « النّفس الإنسانية مولعة بكل ما هو جميل ، لذلك تضيق النّفس بالصور التقريرية الفجة الساذجة ، أما المجاز (الاستعارة) فهو يكسو الصور الأدبية جمالا

---

[1] - عبد الفتاح لاشين ، البيان في ضوء أساليب القرآن ، ط1 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1977 ، ص 60 .
[2] - عبد العزيز عتيق ، في النقد الأدبي ، ص79- 83 .
[3] - جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د ط ، دار المعارف ، القاهرة ، د ت ، ص192 .
[4] - الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص61.
[5] - الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص40 .
[6] - الجرجاني ، السابق ، ص137 .

وروعة تجذب إليه النّفوس »[1] ،فليست الاستعارة بنية بسيطة ساذجة ، بل هي ملازمة لعمليات ذهنية ونفسية عميقة.[2]

وألفاظ الاستعارة ألفاظ موحية تجهل القارئ يحس بالمعنى وكانه يشاهده أمام عينيه ، من ذلك ماجاء في قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا) لاتقف كلمة (يموج) عند استعارتها لمعنى الاضطراب ، بل إنها تصوّر للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس ، احتشادا لاتدركه العيون وكأنه البحر الزاخر الهائج المضطرب .

وقوله : (قال رب إنّي وهن العظم مني واشتعل الراس شيبا) فكلمة (اشتعل) لاتحمل معنى الاشتعال وحسب ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات كما تدبُّ النار في الخشب بطئية ثم تتقد اشتعالا ، وفي وصف الرأس بالاشتعال إيحاء بهذا الشمول الذي أتى على كل شيء فيه فلم يترك سوادا.

وأمثلة ذلك كثيرة:

- وءاية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون.
- بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق
- ربّنا أفرغ علينا صبرا
- فصب عليهم ربهم سوط عذاب
- ولما سكت عن موسى الغضب.

ثالثا :الكناية القرآنية

قد رأينا أن الاستعارة تتحدث من خلا ل صورها إلى نفوسنا موحية ومجسّدة المعنى النّفسي المقصود ، أما الكناية فمن خلال تعريفها بأنها « اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه »[3] ، فهي إذن تترك للقارئ والسّامع استنتاج ما تريد في العالم النّفسي ، إذ يراد المعنى ولازمه ، ويبقى دور المتلقي أن يستنتج المعنى الذي ينسجم مع توازنه النّفسي .

وقد تفطن ابن أبي الإصبع المصري إلى البعد النفسي في الكناية حين قال : « الكناية هي عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وعن النّجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف ، هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب ، وقد يقصده بالكناية عن ذلك وهو أن يعبّر عن الصّعب بالسهل ، وعن التبسط بالإيجاز أو يأتي للتعمية والإلغاز أو للتستر والصيانة»[4] ، فالكناية إذن تراعي نفسية المتلقي فلا تريد أن تجرح مشاعره أو تعكر صفوه بما يخدش نقاءها ، كما أنها تبعثه للتشوق لتجلي الحقيقة ومعرفتها « فمن خلال الكناية يشعر المتلقي بالميل إلى اكتشاف المعنى الحقيقي وترسيخه في النّفس بعد الكشف عنه ».[5]

---

[1] - حفني محمد شرف ، الصورة البيانية ، د ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د ت ، ص221 .

[2] - محمد عبد المطلب ، البلاغة قراءة أخرى ، ط4 ، الشركة العالمية للنشر ، بيروت ، 1994 ، ص171 .

[3] - ابن الأثير ، المثل السائر ، ج2 ، ص181 .

[4] - ابن أبي الإصبع ، بديع القرآن ، ص159 .

[5] - سمير أبو حمدان ، الإبلاغية في البلاغة العربية ، ص159 .

وترجع بلاغة الكناية إلى أنها بمثابة إقامة الدعوى مشفوعة بدليلها ، فالمعنى إذا جاء مصحوبا بدليله كان أقوى تأثيرا وأشدّ إقناعا [1]، لأن الإيحاء بالمعنى أبلغ من التصريح به ، وذلك أن النّفس تميل إلى معرفة المعاني الخفية أو المكنى عنها ، وتعزف عن المعاني المصرّح بها ، ومادامت الكناية تستر أو تكني عن المعنى ، فإن ميل النّفس إليها أكثر من الحقيقة ، وفي هذا السياق يقول الجرجاني : « الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها ، مكشوفا عن وجهها ، ولكن مدلولا بغيرها ، كان ذلك أفخم لشأنها وألطف لمكانها ، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبيتا له إذا لم تُلقه إلى السّامع صريحا ، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية ، والإشارة ، كان له من الفضل والمزية ، ومن الحسن والرونق ، مالا يقل قليله ، ولا يُجهل موضع الفضيلة فيه »[2] ، وفي موضع آخر يقول : « من المركوز في الطباع ، والرّاسخ في غرائز العقول أنه متى أريد الدلالة على معنى فترك أن يصرح به ، ويذكر باللفظ الذي هو له في اللغة ، وعمد إلى معنى آخر فأشير به إليه ، وجعل دليلا عليه ، كان الكلام بذلك حسن ومزية لا يكونان إذا لم يصنع ذلك وذكر بلفظه صريحا ». [3]

وعليه فالكناية « تضم في دائرتها التعبير الذي يترك ظلال حقيقية يشتغل بها الذهن ، ويعمل فيها الخيال ، فيتشعب المعنى ويتّسع ، ويزيد بالإيحاء من دلالة الكلام »[4] ، فالأسلوب الكنائي يقوم على أساس التلازم الذي هو أحد عوامل " تداعي المعاني " لأننا حينما نستخدم الملزوم نريد اللازم.[5]

وتعتمد الكناية على عمليتي خفاء وظهور معا فهي بين ثنائية الإنتاج ، فالإنتاج الصياغي له دلالة حقيقية بحكم المواضعة ، لكن يتم تجاوزه إلى المستوى العميق لحركة الذهن التي تمتلك قدرة الربط بين اللوازم والملزومات ، فإذا لم يتحقق هذا التجاوز فإن المنتج الصياغي يظل في دائرة الحقيقة ، وبهذا يتضح أن في الكناية قصدا لتجاوز المستوى السطحي مع الاحتفاظ للمعنى الموازي بحق الحضور التقليدي.[6]

تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملا في أداء المعاني ، وتصويرها خير أداء ، وهي حينا راسمة مصوّرة موحية ، وحينا مؤدّبة مهذّبة ، تتجنب ما ينبو عن الأذن سماعه ، وحينا موجزة تنقل المعنى الكبير في اللفظ القليل ، وكثيرا ما تعجز الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية ، في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية[7] .

وبهذا نجد أن مثل هذا الأسلوب يلجأ إليه عندما تكون النّفس غير راغبة في الإفصاح مباشرة عن مرادها ، حيث تستخدم هذا الأسلوب الذي تتستر النفس خلفه فيصل المعنى إلى المخاطب ، فالكناية – على ما قيل - « طريق معبّدة للخروج من مأزق التعبير الصريح المباشر إلى التعبير الخفي غير المباشر ، كما أن الكناية تمكّن النّفس من أن تخفي ما تراه من آراء سلبية أو نقائص في الآخرين ، كما أن الأسلوب

---

[1] - بسيوني عبد الفتاح فيود ، من بلاغة النظم القرآني ، ص 203 .
[2] - الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 204 .
[3] - الجرجاني ، المصدر نفسه ، ص 284 .
[4] - عبد القادر حسين ، القرآن والصورة البيانية ، ط2 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1985 ، ص221 .
[5] - عبد الفتاح لاشين ، البيان في ضوء أساليب القرآن ، ص265 .
[6] - محمد ديب الجاجي ، النسق القرآني دراسة أسلوبية ، ص 545 .
[7] - بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن الكريم ، ص 207 .

الكنائي يقوم على أساس التلازم الذي هو احد عوامل تداعي المعاني ، إذ نحن باستعماله نستخدم اللازم ونريد الملزوم »[1] .

وعلى هذا نجد هذا التعبير في القرآن الكريم وميزته أنه يمنح « المتلقي حالة نفسية ووجدانية وعقلية تجعله أكثر توازنا وتكيفا وانسجاما بما يحقق له الجمال الفني والصدق النفسي».[2]

من ذلك حينما يكني النظم الكريم عن الندم والتحسر بالعض على اليدين ، والسقوط في الأيدي وتقليب الكفين : يقول تعالى : [وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا]الفرقان :27 . إذ تصوّر لنا لفظة "يعض" حالة التحسر والندم الشديدين التي يكون عليهما العاصي يوم القيامة . وحقيقة العض هو«الإمساك بالأسنان ، عضِضته وعضَضْتُ عليه-(بالكسر والفتح- عضًّا وعضِيضاً <يوم يعض الظالم على يديه >عبارة عن شدة الندم لما يرى من عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك»[3] ، وإن كان فعل العض حسيا إلا أنه يدل على حالة نفسية إذ « تخرج الدلالات الحسية بمجرد التعبير الحسي إلى الإيحاء النفسي فهما يمثلان هدفا واحدا في النسيج التصويري وتلاحمهما يعني أنهما مكملان إلى بعضهما لأن المقصد من العذاب الحسي هو تعذيب للنفس أيضا»[4] ، ومجيء الفعل "يعض " مضارعا دلالة على استمرار الفعل وتكرره إذ أن البلاغيين يقولون إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستقرار[5] ، ثم إن الظالم لا يعض يدا واحدة بل يعض الاثنتين«فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها ، إنما هو يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدّة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضّه على اليدين وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسّمها تجسيما»[6] ، وقد أخرج التعبير القرآني الصورة بأسلوب فذ إذ أنه عبّر عن أثر نفسي والذي هو الحسرة والغيظ بمشهد حسي متحرك وهو مشهد العض ، فالقارئ المتذوق لهذه الآية لا يقف مطولا عند تلك الحركة الحسية المتمثلة في عض اليدين ، بل إن خياله لينفذ به إلى ما يوحي به هذا الفعل وما يعكسه من شدّة التحسّر وكثر الغيظ والحنق « فليس المراد من عض الظالم على يديه تلك الحركة المادية التي تتمثل في وضع اليدين بين الأسنان والضغط بهما عليهما ، لأنه لا قيمة لها في ذاتها ، وإنما القيمة الحقيقة لما ترمز له ، وتدل عليه ونعني به الإحساس بالندم والتحسّر على ما فات وذلك هو ما تظطرب به نفس الكافر في ذلك اليوم وهو المراد من الآية الكريمة»[7] ، لأن «عض اليدين والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان ، وحرق الأسنان وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من رواد فها فيذكر المرادفة ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنّى عنه».[8]

ومن الكناية المصوّرة الموحية ، قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) ، فقد عبّر عن البخل باليد المغلولة ليكون التصوير محسوسا لهذه الخلة

---

[1] - عبد العزيز عتيق ، في النقد الأدبي ، ص 83 .
[2]- العلوي أبو الحسن محمد بن احمد ، عيار الشعر ، تح : عبد العزيز بن ناصر المانع ، د ط ، دار العلوم ، الرياض ، 1985 ، ص24 .
5- الفيروز أبادي ، بصائر ذوي التمييز ، ج4 ، ص74 . وانظر : ابن منظور ، لسان العرب ، م2 ، مادة (عضض)، ص805 .
1- سعاد بولشفار ، آيات العذاب والنعيم في القرآن الكريم –دراسة فنية- ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، ص51 .
2– نذير حمدان ، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ، ط1 ، دار المنارة ، جدة السعودية ، 1312هـ -1991م ، ص194 .
3 – سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م5 ، ص2560 .
4- شفيع السيد ، التعبير البياني ، ص112 .
5- الزمخشري ، الكشاف ، ج3 ، ص95 .

المذمومة في صورة بغيضة منفّرة ، فهذه اليد التي غُلّت إلى العنق لاتستطيع أن تمتد وهو بذلك يرسم صورة البخيل العاجز عن فعل الخير والمعروف ، كما أن التعبير ببسطها كل البسط يصور المبذّر الذي لايبقي من ماله شيئا بالإسراف في الإنفاق في غير وجهه الذي جعل له.

وانظر إلى الكناية في قوله تعالى : (ما المسيح عيسى ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام) فالعبارة تحمل معنيين الأول قريبا وهو السطحي المفهوم منها والذي يتبادر إلى الذهن مباشرة ، لكنه أيضا تشير إلى معنى خفي وهو اتصاف المسيح عليه السلام وأمه بالبشرية وقد تم ذلك بأدب رفيع وذوق عال فمن الطبيعي أن أكل الطعام يعقبه هضم ، والمهضوم يسري في الجسد منه شيء ويزيد منه شيء ، والزائد سبيله معلوم.. ، وقد لجأ الخطاب إلى هذه الكناية لتصوير الحقيقة التي يريدها من إثبات بشرية النبي عيسى ونفي صفة الربوبية التي ألصقها به المغالون ، فأخرج ذلك بتلطف وادب يليق بالمقام.